أخلاقيات المسؤول وعبرة صاحب الجنتين

نشرة في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 19 ديسمبر 2021

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

في سورة الكهف وفي الآيات الممتدة ما بين الآية 32 إلى الآية 44 يسرد لنا القرآن الكريم قصة من القصص الرائعة التي يمكن أن تكون نبراساً لجميع أصحاب النفوذ والمسؤولين الذين يعتقدون أن هذا الكرسي الذي يجلسون عليه هو ملكهم وأنه لا يمكن أن يُنزع عنهم مهما كانت الظروف.

الحكاية معروفة وبسيطة ومتكررة بطريقة أو بأخرى، رجل يملك مزرعتين فيهما كل الأطايب والنعم، حتى أنه لا يعاني من مشكلة الماء، فالماء يتدفق من خلال أرض الجنتين. هذا الرجل عندما بلغ هذه المرحلة من الثراء والنعم وبساطة في الحياة أعتقد أنه ملك الدنيا وأن هاتين الجنتين لا يمكن أن تزولا أو يحدث لهما أي حادث، وأعتقد أن هذا المُلك أبدي وأزلي، وقد وصف القرآن الكريم هذه اللحظة بالوصف الدقيق، إذ قال تعالى في الآيتين 35 و36 (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا).

من الواضح أنه أعتقد أن هذه النعم لا يمكن أن تنتهي، وأعتقد أن الساعة لن تقوم، ليس ذلك فحسب وإنما أعتقد أنه حتى وإن انتهت الدنيا وقامت القيامة فإنه سوف يجني من ربه أكثر مما جنى في الدنيا، وهذا هو انحراف في الفكر.

وعلى الرغم من ذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى أمهله على لسان صاحبه الذي كان يحاول أن ينبهه أن هذه النعم لن تدوم، وإن هذه الملكيات يمكن أن تنتهي بلحظة إذ يمكن أن يحدث جفاف أو يدور عليها إعصار فينتهي كل شيء، إلا أنه – ومن خلال سياق القصة والآيات – لم يرعوي، وظل يعتقد أنه جنى كل ذلك من قدراته وإمكانياته وأنه هو صاحب الحق في كل ذلك، ولكن بقدر هذا الانحراف وإنكار الجميل أتت العدالة الإلهية.

وهنا تنتهي قصة هذا الرجل، إلا أن مثله في هذا العصر الكثير.

اتصل بي صاحبي، وقال: أتذكر فلانًا. وفلان هذا كان مسؤولاً في مكان ما.

قلت: نعم، أتذكره ما به.

صاحبي: ابتلاه اللّه بمرض السرطان، وهذا جزاء ما فعل بنا.

فلان هذا، كان مسؤولاً من النوع الديكتاتوري، يأتي كل صباح إلى العمل وفي ذهنه فكرة واحدة، كيف ينكد على الموظفين، جبار ومتكبر وأناني، لا يهمه أحد وذلك لأنه يستند على اسم عائلته وعائلة زوجته، فهو يعتقد

أنه لا يمكن المساس به. استمر على هذا المنوال سنوات، يظلم هذا ويقهر هذا، المهم في نهاية اليوم يضحك لأنه قام بتأصيل فكرته في ظلم الناس ونكدهم.

أعتقد هذا الرجل أنه فوق الجميع، وبالفعل فإنه حتى رؤسائه من المسؤولين كانوا يتحاشون معاتبته أو نهره أو حتى التحدث إليه في سلوكياته، لذلك تجبر وتكبر.

وبلغ أنه عندما كان يدخل الإدارة المسؤول عنها فإنه كان يصرخ على الجميع، لذلك كان الجميع يتهرب منه ولا يحاول أن يتصادم معه، حتى أنه كان يقول لأحد الأفراد عندما سأله "إذا أتيتُ ولم أجدك في المكتب، ترى أين يمكن أن أجدك ؟".

قال له: ستسمع صوتي أصرخ على أحد الموظفين.

ولكن أتى ذات يوم، وقد نُصب من هو أعلى منه نسبًا وقربًا من مجلس الإدارة رئيسًا له، وكان أول قرارات هذا الرئيس الجديد أن أحاله إلى التقاعد مباشرة. فخرج من المؤسسة غير مأسوف عليه، خرج وهو منكس الرأس ولا يستطيع أن يرفع بصره في أحد من الموظفين، وهكذا هي العدالة.

وفي قصة أخرى، مدرس، لم يكن يمتلك سيارة فكان والده يوصله إلى المدرسة كل يوم، وفجأة ومن غير جهد منه، صار هناك لقاء بينه وبين المسؤول الأكبر في المؤسسة وأعضاء الهيئة التعليمية، وكان هذا

المدرس لسانه رطب بالتبجيل والشكر للمسؤول، فلم يمر عام إلا وأصبح هذا المعلم مسؤولاً في المؤسسة، فنسي كل الذين كان يعمل معهم، ونسي هذا الذي كان معلمًا كل أصحابه والناس الذين حوله، فأخذ يأمر وينهي، ولم ينتبه أنه صعد السلم من غير جهد منه، وأنه سوف يسقط من السلم بسبب نفس الشخص الذي أصعده. ذات يوم ذهب إليه أحد أصدقائه السابقين والذي كانوا يعملون معه، وعندما وصل هذا الصديق إلى مكتب هذا المسؤول استقبلته السكرتيرة وقالت له: أنه لا يريد مقابلتك، أكتب ما تريد في هذه الورقة، ثم غادر.

يقول هذا الصديق: حاولت الاتصال به على هاتفه الخاص، إلا أنه قد غير رقمه وهاتفه وحياته كلها، وانسلخ من كل ما كان ليصبح ما أراد.

ترى كيف ستكون نهاية هذا الرجل ؟ وكيف ستكون العدالة الإلهية ؟

يقول صاحبي عن صاحبه، أن صاحبه ودعونا نسميه (س)، كان زميلاً أثناء الدراسة لصديق مقرب منه، وهو (ص)، وتخرجا معًا، وعملا في نفس المؤسسة تقريبًا، واستمرا يعملان سنوات في نفس المؤسسة، إلا الحياة فرقت بينهما، فخرج أحدهما يكمل دراسته في الدولة الفلانية والآخر في دولة أخرى، وبعد سنوات عاد (ص) قبل (س)، وتعثر (س) في دراسته بسبب بعض الظروف الأسرية، إذ توفي والده وبعض الأمور الأخرى.

الأخ(ص) أصبح مسؤولاً عامًا للمؤسسة وفي الحقيقة من غير جهد منه، وإنما بواسطة الدفع الأسري والأصدقاء الذين حملوه على الأكتاف حتى بلغ ما بلغ.

وعندما عاد (س) ذهب إلى مقابلة صديقه (ص) الذي رحب به وطلب منه العودة إلى منصبه السابق، وذلك قبل أن يتسلم شهادته العليا، إلا أن (س) استاء ولكنه وافق بمضض وذلك بناءً على وعود (ص) أنه سوف يُحسن من وضعه مستقبلاً، وافق وبالتالي تم تعيينه، وبدأ عمله.

عمل (س) بجهد واجتهاد، واستطاع خلال فترات قصيرة أن يلفت أنظار العامة من خلال وسائل الإعلام وأخلاقياته وقدراته القيادية والعلمية، حتى أنه كان يتم استضافته في كثير من الندوات وورش العمل، للاستفادة منه ومن علمه وتواضعه.

تنطوي الأعوام فاعتقد (ص) أن (س) سوف ينافسه على مقعده وأنه يفكر في اغتصاب منصبه، وهذا الشعور جعل الغرور والأنانية يغليان في قلب (ص) كالمرجل المغلي، فأغلق الأبواب أمام (س)، فما كان يستقبله في مكتبه بعد أن كان يتحدث معه كل يوم ويفضفض له معاناته اليومية والحياتية. ثم أهمله وهمشه فلم يكن يدعوه إلى اجتماعات المؤسسة، ولم يكن يكلفه بأي عمل، وبعد فترة من الزمن وجد (س) نفسه محاصراً ولا يعرف السبب، أو الأسباب التي تدعو (ص) ليقوم بهذا العمل، فحاول أن يتصل به إلا أنه لم يكن يلقى أي رد، فاتصل بالسكرتيرة إلا أنها

كانت تقول له "إنه مشغول، أو عنده ضيف أو ما إلى ذلك من أعذار"، واستمر الوضع على هذا المنوال فترة طويلة من الزمن، ثم صدر قرار بإلغاء وظيفته، فوجد (س) نفسه من غير وظيفة وأنه ليس موجوداً على الهيكل التنظيمي للمؤسسة التي يعمل فيها، وبعد فترة من المعاناة تم إحالته إلى التقاعد.

وانتهى جزء من القصة وما زال المخرج يحرك شخوصه، والنهاية معروفة فلا يمكن أن يذهب صاحب الجنتين بكل ما يملك، فالمناصب زائلة وكذلك الأموال وكلنا سوف نخرج من الدنيا بقطعة قماش فحسب، والعدالة الإلهية حتمية.

لنعد إلى صاحب الجنتين، ونحن نقرأ هذه القصة كل يوم جمعة فإنه يجب أن نخرج بتفكيرنا من إطار أن هذه القصة التي حدثت في الزمن الغابر، وأنه لا يمكن أن تحدث اليوم، وكذلك يجب أن نخرج من إطار أن الحكاية حدثت لصاحب جنتين أو حديقتين، أو صاحب ثراء فقط، وإنما من المهم أن نفكر في أن الحكاية تقص لنا حكاية أي إنسان أوتي من الزرق أيًا كان نوعه، فالمنصب رزق، والموهبة رزق، والأولاد رزق، وغيره الكثير، فلا يعتقد صاحب المنصب أن الحكاية لا تمسه في شيء، ولا يعتقد صاحب الموهبة والقلم أو القدرة الكلامية والمنطق وما إلى ذلك أن الحكاية لا تهمه، فهذا خطأ لأن كل تلك القدرات التي نمتلكها ما جاءت مع خروجنا من بطون أمهاتنا، وإنما أنتنا من رحمة اللّه سبحانه

وتعالى بنا، فيمكن بكلمة من اللّه صاحب هذه المنحة أن يزيل كل هذا بقرار وكلمة (كن) ليكون، وكلما زاد المنصب وزادت الموهبة وقدرات وإمكانيات من المفروض أن تزيد المسؤوليات، ليشعر بعدها الإنسان أنه مسؤول وأنه محاسب على هذه المسؤولية.

ولهؤلاء الذين يصعدون إلى المناصب العليا – خاصة – يمكننا أن نقول: إنه لم تكن لتصعد إلى تلك المناصب من غير هؤلاء الذين من حولك من البشر، فبعضهم ساعدك، وبعضهم آزرك، وبعضهم دعا لك لتصل، فعندما تصل إلى هناك لا تنسى فضل الناس أيًا ما كانوا حتى الذين ليس لك صلة بهم، لأنك حتمًا ستنزل في يوم من الأيام بطريقة أو بأخرى فلا تجعل من كل هؤلاء أعداك، ويتمنون زوالك وزوال النعمة التي أنت فيها، لأنك حتمًا ستسقط من السلم الذي صعدت.

ودعونا نختم كلامنا بهذا الحديث النبوي الشريف؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلى اليَمَنِ، فَقَالَ: "اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ"، رواه البخاري ومسلم.

وليس بعد كلام المعصوم صلى اللّه عليه وسلم كلام.